دعامة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الوطن العربي المعاصر

المقياس: أعلام الفكر الإصلاحي والسياسي في الوطن العربي

الأستاذ/ د.عبد القادر خليفي

المحاضرة الثالثة عشرة: عبد الرحمن الكواكبي: المفكر والمناضل السياسي

تمهيد/

يعتبر الكواكبي رائدا للفكر الإصلاحي السياسي في بلاد الشام، وقد لقيت أفكاره المتنوعة، ولاسيما تلك المتعلقة بنظام الحكم، ومسألة الخلافة، والقومية العربية، رواجا في العالم العربي، ذلك أنها قد تميزت بالجسارة والجرأة، وجاءت في لحظة تاريخية بالغة الأهمية، وهي في ثوريتها وملامستها لواقع العرب، لا تزال مرجعا للباحثين عن الحرية والانعتاق، وتمثل بحق مدرسة للفكر الاجتماعي والسياسي.

فمن يكون الكواكبي؟ وما هي انتاجاته الفكرية؟ وما مقومات فكره السياسي؟

أولا:الكواكبي الإنسان: ولد عبد الرحمن الكواكبي عام 1854م بحسب ما أورده ابنه أسعد الكواكبي بينما تشير الأوراق الإدارية الرسمية إلى تاريخ 1848م، ويفسر نجله ذلك التضارب، بأن والده اضطر إلى تغيير تاريخ ميلاده، وإضافة ست سنوات، وذلك حتى يتمكن من ترشيح نفسه للانتخابات العثمانية في ولاية حلب أثناء نضاله ضد سلطة العثمانيين، تنتسب عائلته إلى الأشراف، حيث تعود شجرته العائلية إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما حازت عائلته مكانة اجتماعية وعلمية مرموقة، حيث تولى والده مناصب الإفتاء والإمامة والقضاء، وشغل عضوية المجلس الإداري في تلك الولاية، ومن ثمة فإن أسباب الرفاهية والثراء كانت متوفرة.

تلقى تكوينه العلمي في مدينتي حلب وأنطاكية، حيث تعلم اللغات العربية والتركية والفارسية، وإذا كانت الظروف لم تتح له دراسة إحدى اللغات الأوربية، فلقد ظهر في كتاباته آثار قراءة المترجمات عن هذه اللغات، وخاصة في مؤلفه " طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد "، وامتدت ثقافته لتتجاوز الإطار التقليدي لعصره، لتشمل المنطق والعلوم الرياضية والطبيعية، إلى جانب علوم اللغة العربية والشريعة.

تقلد عدة مناصب في ولاية حلب؛ فقد رأس الغرفة التجارية، وعُيّن عضوا في لجنتيْ المالية والمعارف العمومية بالولاية، ورئيسا فخريا للجنة الأشغال العامة فيها، فتحقق في عهده الكثير من المشاريع الهامة التي استفادت منها الولاية، وفي عام 1892 عُين رئيسا لبلدية حلب، ونظرا لصراعه المتواصل مع التسلط التركي فقد آثر التخلي عن مناصبه الحكومية، والاهتمام بقضايا الناس، فتحول إلى ما يشبه كاتب محاماة، يحرر شكاوى العامة، مما سمح له بالتقرب من جميع الفئات الشعبية، ومعرفة مشاكلها،ونيل احترامها ومحبتها.

وعندما بلغت حدة الصراع بين الكواكبي -الذي كان يُطلق على نفسه لقب "السيد الفراتي"- والسلطة العثمانية في حلب ذروتها، وبدأت المكائد تُحبك ضده، قرر الهجرة إلى مصر، التي وصلها عام 1899م، وهناك وجد الكواكبي المناخ الحُر، والجو المفتوح الذي يتيح له نشر أفكاره، بعيدا عن الملاحقة والتضييق، لأن الاحتلال الإنجليزي في مصر كان يتيح قدرا من الحرية لمعارضي الأتراك.

فقد وجد بها أسماء لامعة من المناضلين والمثقفين والعلماء على غرار رشيد رضا، ومحمد كرد علي وطاهر الجزائري، وعبد القادر المغربي ورفيق العظم، وعبد الحميد الزهراوي وغيرهم، فكان مقهى سبلندد بار بالقاهرة بمثابة ناد أدبي وسياسي يجمع هؤلاء.

وفي عام 1901م قام الكواكبي برحلة شهيرة إلى بلدان الشرق، امتدت زمنيا على مدار نصف سنة زار خلالها إفريقيا الجنوبية والشرقية، والحبشة والصومال وشبه الجزيرة العربية، وزار سواحل آسيا الجنوبية والهند، وطاف بالسواحل الجنوبية للصين، وكانت دراسته لهذه البلاد تشمل إلى جانب الناس والثقافات الاقتصاد والثروات، وكل ما يهم المفكر الكبير الموسوعي.

كانت خاتمة حياته، أن تعرض للتصفية الجسدية على أيدي عملاء السلطنة العثمانية، حيث تتحدث الروايات إلى أن أحد الجواسيس قد دسّ له السم في فنجان قهوة، مما أدى إلى وفاته يوم 14 جوان 1902م وشيعت جنازته في موكب مهيب، وفي وسط تلك الأجواء بادر السلطان عبد الحميد إلى خطوة إجرامية ثانية تمثلت في سرقة مخطوطين لمشروع كتابين هما " صحائف قريش"، و " العظمة لله " .

وقد رثا شاعر النيل حافظ إبراهيم الكواكبي على شاهد قبره فكتب:

هنا رجل الدنيا ، هنا مهبط التقى ... هنا خير مظلوم، هنا خير كاتب

قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا ... عليه، فهذا القبر قبر الكواكبي.

من الأقوال التي تنسب إلى الكواكبي والتي أوردها معاصره رشيد رضا في جريدة المنار قوله:" إن الإنسان يتجرأ أن يقول ويكتب في بلاد الحرية، ما لا يتجرأ عليه في بلاد الاستبداد، بل إن بلاد الحرية تولّد في الذهن من الأفكار والآراء، ما لا يتولد في غيرها ".

وقوله أيضا:" هي كلمات حق، وصيحة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح، فلقد تذهب غدا بالأوتاد ".

ثانيا:الكواكبي: صحفيا ومؤلفا:

في عام 1876م اقتحم عالم الكتابة الصحفية حينما انضم محررا إلى جريدة " الفرات " التي كانت تصدر بمدينة حلب باللسانين التركي والعربي، لكن سرعان ما غادرها بعد تجربة قصيرة، لم تتعدى العامين لعدم توافق خطها الرسمي مع روحه المتحررة، ومن ثمّ، بادر إلى القيام بعمل مستقل، حيث اشترك مع هاشم العطار وأنشأ معا صحيفة "الشهباء " عام 1878م، وهي أول صحيفة عربية خالصة تشهدها ولاية حلب، وبالرغم من أن هذه التجربة لم تعمر طويلا، حيث أوقفها الوالي التركي كامل باشا القبرصي- الذي تولى لاحقا منصب الصدر الأعظم - بعد أن صدر منها ستة عشر عددا، كانت مليئة بالأفكار التحررية النارية للكواكبي ولكن الرجل لم يستسلم وأخرج في العام الموالي جريدة " الاعتدال "، حيث واصل فيها تقديم آرائه وأفكاره فكان مصيرها كسابقتها.

وبعد ارتحاله فرارا إلى مصر عام 1899م، أخذ في نشر سلسلة مقالات في صحف مختلفة منها " المؤيد "، ليقوم بجمعها في كتاب نال من الشهرة الكثير، حمل عنوان " طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" ظهر عام 1902م، وفي تقديمه لهذا العمل، كتب الكواكبي في أوله: " إني نشرت في بعض الصحف أبحاثا علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، منها ما درسته، ومنها ما اقتبسته، غير قاصد بها ظالما بعينه، ولا حكومة مخصصة، إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين، عسى أن يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه، فلا يعتبون على الأغيار، ولا على الأقدار ".

وكتاب طبائع الاستبداد، يدور حول تعريف الاستبداد، بأنه صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء، بلا خشية حساب أو عقاب، ويأتي هذا من كون الحكومة مطلقة التصرف لا يقيدها قانون، ولا إرادة أمة، أو أنها مقيدة بنوع من ذلك، ولكنها تملك بنفوذها إبطال هذه القيود، والسير على ما تهوى، والمستبد يودّ أن تكون رعيته بقرا تحلب، وكلابا تتذلل وتتملق، وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه، هل خلقت خادمة له، أو هي جاءت به ليخدمه فاستخدمها.

يحمل الكواكبي على الاستبداد حملة شعواء إذ يقول:" لو كان الاستبداد رجلا، وأراد أن يحتسب وينتسب لقال: أنا الشّر، وأبي الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضر، وخالي الذّل وابني الفقر، وبنتي البطالة، وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب، أما ديني وشرفي وحياتي، فالمال المال المال ".

هاجم الكواكبي الاستبداد، وتنبأ بسقوطه، ووصف سبل القضاء عليه، فما له بداية يندثر في النهاية ولابد للاستبداد من نهاية، يسقط فيها المستبدون سقوطا مدويا، ويرى بأن بداية نهاية المستبد تكون بشعور الأمة كلها بآلام الاستبداد، فيقول في ذلك: "إن الأمَّة التي لا يشعر كلُّها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحقُّ الحريّة"، ومن ثم، فإن الاستبداد لا يقاوَم بالشِّدة، إنما يُقاوم باللين والتدرُّج، ويشترط الكواكبي على أنه يجب على الأمة قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ما يُستَبدل به الاستبداد.

أما الكتاب الثاني " أم القرى "، فأدلّ على الابتكار، وأوضح في إظهار الشخصية، يقف فيه من المسلمين موقف الطبيب من المريض، يفحص داءه ويتعرف أسبابه.

الكواكبي وقضية الخلافة:

كان من المسائل التي شغلت المفكرين في عصر النهضة قضية الخلافة، وفي هذا الباب فقد اعتبر الباحث هاني الهندي بأن الكواكبي كان أشجع وأصرح من طرح هذه المسألة، مؤكدا حق العرب المطلق فيها،وكان لكتابيه " طبائع الاستبداد وأم القرى "، دور مهم ومؤثر في تعميق الوعي العربي، وكان للندوات التي عقدها مع الأحرار العرب الهاربين إلى مصر، خشية الطغيان الحميدي، مع المثقفين المصريين تأثير واضح في تنبيه العرب وإيقاظهم.

لقد رأى الكواكبي مدى الاستبداد الذي تمارسه السلطة العثمانيّة باسم الدين فراح يطالب بالتمييز بين المُلك والخلافة، داعياً إلى عودة الخلافة إلى الأمّة العربية، وأن تقوم على أساس الشورى والانتخاب، فيكون الخليفة مجرّد رمز روحي لاتحاد المسلمين، بينما تكون السلطة السياسيّة مدنيّة، وتقوم على أساس إرادة الأمّة ليتسنّى لها قطف ثمار الديمقراطيّة.

إنّ كل ما فعله الكواكبي، هو أنّه فصل بين القائمين على الحكم وبين علماء الدين، إنّه أدخل تحديداً مبدئيّاً هو إخراج مؤسسة الحكومة عن دائرة التحكّم بالدين، لضمان حرية العقيدة، بعيداً عن السلطة السياسية،كما أنّه جعل الرابطة الإسلامية بمنأى عن التدخّل في شؤون الحكم، وأبقى على الخليفة بوصفه مرشداً أو رمزاً روحيّاً للجماعة، وميّزه من السلطان أو الحاكم المدني الدنيوي.

الكواكبي والقومية العربية:

في الواقع، فإن الدارسين لفكر الكواكبي قد اختلفوا في فهم أطروحاته فيما يتعلق بمسألة القومية وعلاقتها بالدين، فمنهم من اعتبره رائدا للقومية العربية ومنظرا اشتراكيا بل وحتى صاحب طرح علماني ويرى البعض أن هذا التيار قد بنى تفسيراته على قراءة سطحية لأفكار الكواكبي أو أن أصحابه قد مارسوا الانتقائية في تعاملهم مع كتاباته، بينما جنح

آخرون إلى اعتباره الرجل مصلحا دينيا إسلاميا مستنيرا، رام إلى تجديد وتعميق أصالة الفكر الإسلامي.

والحقيقة أن الكواكبي كان عربياً معتزاً بعروبته، ومسلما معتزا بإسلامه، إلا أن عروبة الرجل لم تكن مثل عروبة القوميين العرب الذين جاءوا من بعده، ذلك أنه لا يعتبر العروبة أيديولوجية أو عقيدة، بل هي انتماء طبيعي، لا ينفك عن الإسلام، بل إن قيمة العروبة والانتماء للعرب تنبع من العلاقة بالإسلام، وهو حينما أعطى المنزلة الخاصة لعرب الجزيرة العربية، فلأنهم حملة الإسلام ووعاؤه، وحينما اشترط الكواكبي أن يكون الخليفة عربياً قرشياً، فذلك في الواقع لم يكن من منطلق قومي، وإنما نبع من منطلق شرعي إسلامي، حيث تكاد تجمع الفرق الإسلامية، على أن الخليفة يجب أن يكون من قريش.

أفكار الكواكبي: آراء المعاصرين وتقييم الدارسين:

يقول الأستاذ محمد كرد علي، وهو من كبار المثقفين الذين احتكوا بشخصية الكواكبي في مصر: " إنه مع تمسكه بالإسلام، لم يكن متعصبا، يأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء، لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة ".

وكتب عنه صديقه محمد رشيد رضا، فقال:" وقد كنا على وفاق في أكثر مسائل الإصلاح، حتى أن صاحب الدولة مختار باشا الغازي اتهمنا بتأليف كتاب أم القرى ".

ويرى جورج أنطونيوس في تقييمه لكتابات الكواكبي،أنها قد عرفت رواجا في مصر، وهربت نسخ منها إلى بلاد الشام ووزعت خفية، وحين ننظر إلى " طبائع الاستبداد و أم القرى " معا نجد فيهما تحليلا عميقا بارعا لضعف العالم الإسلامي عامة، وأقطاره العربية خاصة، وفيهما دعوة حارة إلى اقتباس العلاج الصحيح وكان يبدو له أن ثمة مطلبين لهما قيمة جوهرية، الأول: وجوب بذل جهود جدية منظمة لمحاربة اتجاه الفقهاء الذين يقفون في طريق التقدم الفكري، ومكافحة الجهل المنتشر بين الجماهير، والثاني: أن يستعيد العرب مكانتهم اللائقة، ودورهم في تقرير مستقبل الإسلام ومصيره، وهذان الكتابان من حيث هما مشاركة في الحركة العربية يتبوءان مكانة فريدة وحدهما في أصالتهما، واتساع أفقهما وجرأتهما.

ويذهب الباحث السوري علي أسعد وطفة، إلى القول: " لقد أودع الكواكبي عبقريته السياسية في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، ويعد هذا الكتاب، من الروائع السوسيولوجية والسياسية التي ظهرت في بداية القرن العشرين، ويشكل سفرا عبقريا خالدا، في وصفه وتحليله لكل التجليات الاستبدادية والاستعبادية في الأنظمة السياسية والاجتماعية القائمة في ذلك العصر، ويكمن عنصر الأهمية والإثارة، في أن الكتاب يتضمن تحليلا بارعا لما هو قائم اليوم، إذ يتيح لنا، أن ندرك مختلف التجليات السياسية والاجتماعية والفكرية

للاستبداد في نسق منظومي متكامل، وكأني بالكتاب، يجمع بين دفتيه خلاصات علم السياسة والدين والاجتماع، وعلم النفس في فهم قضايا الاستبداد والتسلط والقهر، في مختلف المجتمعات الإنسانية القديمة منها والمعاصرة ".

خاتمة:

لقد ترك الكواكبي سجلا حافلا في مقارعة الديكتاتورية، والانتصار للعدل والحرية، فقد دفع حياته في سبيل المبدأ، وستظل أفكاره التي بثها في كتابيه الشهيرين " طبائع الاستبداد و أم القرى " بمثابة خارطة طريق ورؤية مستقبلية تنهل منها الأجيال، الباحثة عن الديمقراطية، وعن تجديد للعقل في المنطقة العربية الإسلامية.

//

المصادر والمراجع:

- عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة د.ت
- محمد عمارة، عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الإسلام، ط2، دار الشروق القاهرة 1988م.
- أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- هاني الهندي، الحركة القومية العربية في القرن العشرين، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2015م.
- جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد و إحسان عباس، ط8، دار العلم للملايين بيروت، 1987م.